الباب السادس

الأغنياء.. ما لهم وما عليهم

فصل أول : طريقة عرض القرآن لقضية الغنى . .

فصل ثانٍ : ذمّ الإسلام الغرق في شهوات الدنيا ! !

فصل ثالث : ماذا عن الانفاق ؟

فصل رابع : إلى الأغنياء . . .

فصل خامس : الطمع في الدنيا سبيل إلى الهزائم ! !

كما رأينا ، فللإسلام توجيهات هادفة ، لكل فئة ما يناسبها لتكتمل الحلقات مع بعضها البعض ، وكان للأغنياء نصيب كبير من ذلك ـ وباختصار ـ :

ـ السماحة : كما قال رسول الله ﷺ : «**رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى**»[1] .

ـ الوفاء بالوعد : كما أخبر الله تعالى في عدّة مواضع في الكتاب المنزل ، مثل قوله :

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] .

ـ الأمانة : كما قال رسول الله ﷺ : «**التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصدّيقين والشهداء**»[2] .

وكما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

ـ الاعتدال في الربح ، والبعد عن الطمع ، وعدم رفع الأسعار ، والقناعة .

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذي .

ـ الصدق : كما قال رسول الله ﷺ : **«البيّعان بالخيار ما لم يفترقا ، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»**[1] .

ـ الإنفاق لنيل رضى الله تعالى : من زكاة ، وتطوّع ، وعلى الأقارب ، وفي سبيل الله تعالى ، كما في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠ـ١١] .

وكقول النبي ﷺ : **«من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه في أهله فقد غزا»**[2] .

وقد جعل الإسلام الإنفاق طريقاً لدخول الجنة على شرط أن يكون ممّا تحبه النفس وتهواه ، لا من الأمور الكاسدة أو التالفة ، كما قال تعالى :

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وللحديث حول الإنفاق تشعبات ـ سنتحدث عنها بعد عدة صفحات بالتفصيل ـ

كذلك فقد وجه الإسلام الأغنياء إلى قضية جوهرية ، فهو لا يكتفي منهم بأداء الصلاة ، ولا بصوم رمضان ، ولا بحج البيت الحرام ، ولا بصلاة التراويح ، ولا بالنوافل المتعددة.

إنما فرض عليهم شيئاً آخر سمّاه (عبادة الأغنياء وعبوديتهم) : وملخصها ـ أن يؤدوا شكر النعم التي فتحها الله عليهم ـ نعمة المال.. والمتاع ، والعقارات والسيارات ، والأرصدة ، وذلك بإعطاء الفقراء

---

(١) رواه البخاري، وأحمد.

(٢) رواه الإمام مسلم.

حقهم دون منّة أو تفضيل عليهم ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج : ٢٤ـ٢٥] .

وبالتالي جعل الله تعالى حقوق الفقراء أمانةً عند الأغنياء ، فإذا جاع ـ كما يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة ـ الفقير ، أو عري ، فبظلم من الغني ، فإذا حاول الأغنياء الاقتصار على الصلاة والصيام والحج وأداء النوافل ، وقعدوا عن إعطاء الفقراء حقهم ، وظنوا أنهم خرجوا من عهدة التكليف فقد أخطؤوا فهم التكليف الإسلامي وأخطؤوا طريق العبادة وتحقيق العبودية .

* * *

الفصل الأول

طريقة عرض القرآن لقضية الغنى...

الملفت للنظر ، أن الإسلام ذكر مشكلة الغنى منذ أول سورة القرآن الكريم!!

لم ذلك ؟ وماذا نستدل من ذلك ؟

في سورة العلق وهي سورة نزلت على قلب المصطفى صلوات الله عليه وهو يتعبّد الله في غار حراء ، وحيداً ، خاشعاً ، مستنيراً ، باحثاً عن الحقيقة ضمن هذا الركام الجاهلي... جاءت سورة العلق تتحدث عن القراءة والكتابة... ثم تتحدث عن أصل الإنسان ـ من علق ـ

ثم جاء الحديث عن الغنى ، وكيف كان الحديث عنه في هذه السورة ؟ لنستمع إلى سحر البيان :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق : ٦-١٩] .

إنهما صورتان متضادتان : رسول الله محمد ﷺ ، يسجد لله ، يعلّق القلب بالله ، يناجيه ، يدعوه ، يطوف حول الكعبة في بيت الله.

وأبو جهل : القوي! الغني! صاحب الجاه والمنصب والمال الكثير! يريد أن يمنع رسول الله ﷺ من ذلك ـ هكذا قال الإمام السيوطي ـ وقال أبو

الحسن الواحدي النيسابوري في أسباب التنزيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل .

حيث نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يصلّي ، فجاء أبو جهل ، فقال : ألم أنهك عن هذا التصرّف ؟

فانصرف النبي ﷺ ، فزبره ، فقال أبو جهل : والله ، إنك لتعلم ما بها ـ بمكة ـ نادٍ أكثر مني ، فأنزل الله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق : ١٧ـ١٨] قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه ، لأخذته زبانية الله تبارك وتعالى[1] .

لكن لماذا تفعل ذلك يا أبا جهل ؟ لماذا تريد أن تقف حجر عثرةٍ أمام مسيرة دعوة الله ؟ لماذا تحاول أن تكون حاجزاً يقف في وجه انتشار النور ؟

إنها خمرة القوة والمال ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] .

هذا كله في أول سور القرآن الكريم! . . ثم تأتي السورة الثانية مباشرة وهي سورة المدثر ، ليفاجئنا بيان الله بالحديث عن سطوة المال ، والأولاد ، والجاه ليقول الله تعالى فيها :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ١١ـ٣٠] . وأسباب نزول هذه الآيات كما قال :

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٥٤ ط ١٩٩٤ دار الفكر.

الإمام السيوطي ، وأبو الحسن علي الواحدي النيسابوري الذي نقل ـ بسنده المتصل ـ إلى ابن عباس قال : أن (الوليد بن المغيرة) جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن وكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ، فقال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟

فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمرٌ أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فقال : هذا سحرٌ يؤثر ، يؤثر عن غيره ، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر : ١١ـ٣٠] الآيات كلها[1] .

وهذا الاهتمام من عرض موضوع الغنى من أول سورة ثم في السورة الثانية ثم في أماكن متفرقة ومتعددة من القرآن الكريم لدليل على اهتمام الإسلام بالنتائج المرتبطة والمترتبة على الغنى ، من طغيان وسلطة وظلم وسيطرة.

لذلك راح الإسلام يقدم المواعظ والنصائح للأغنياء من أجل أن يهذّبوا أنفسهم من طغيان المادة وهجوم سطوتها وسيطرتها على نفس الإنسان ومن ثم لم يكتف بذلك ، بل وضع شرائع إلزامية (من زكاة وإنفاق على الأقارب وتبرعات وصدقات) كما سنرى في الفصول القادمة .

* * *

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٤٦ـ١٤٧.

الفصل الثاني

ذم الإسلام الغرق في شهوات الدنيا ولذّاتها!!

في هذا المجال سنورد الأدلة من كتاب الله ـ وهي كثيرة جداً ـ وسنكتفي بذكر بعضها ، وكذلك من أحاديث المصطفى صلوات الله عليه :

● يقول الله تعالى في معرض الذم للترف ، والتحذير منه ، وبيان أن الذين يكذبون الرسل على الدوام هم المترفون :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٤ـ٣٥] .

إنه المنطق العجيب ، بل إنها الوقاحة المفضوحة : إنا بما أرسلتم به كافرون!!

لماذا أيّها المترفون ؟ ؟

نحن لدينا أموال كثيرة في صناديقنا ، وعقارات وعمارات وسيارات ، ولدينا الأولاد الكثيرة ، ثم نحن غير معذّبين!!

فمن أين لكم هذه الضمانة بعدم تعذيبكم ؟! يردّ الله عليهم ردّاً حاسماً بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٦ـ٣٧] .

إنه ردّ مفحمٌ من الباري عز وجل : لا المال ولا الأولاد هي التي تقرّبكم من الله ، بحيث القربى من الله تقاس بمقدار الإيمان والعمل الصالح . .

● ويقول الله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥ـ١٦] .

إنها لفتة قرآنية دقيقة :

من أراد الدنيا وملذاتها وشهواتها فسنعطيه إياها كاملةً غير منقوصةً ، لكن ليس له في الآخرة إلا أسوأ مصير وهي نار جهنم ـ والعياذ بالله تعالى ـ ووقتها لا ثواب له في أي شيء فعله ، ولن يستفيد من أي شيء قدّمه .

● ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1] [الإسراء : ١٦] .

إنه كلام واضح أخّاذ ، يأخذ بمجامع القلوب ، يبيّن الله تعالى فيه أن سبب تدمير أمةٍ ما ، وإزالتها من الوجود هم المترفون!!

بحيث يأمر الله المترفين ، لكن بماذا يأمرهم الله ؟ هل يأمرهم الله بالفسق ـ كما ظنّ بعض الجهّال ؟ أبداً وحاشا لله ـ فالله لا يأمر بذلك ، بل :

---

(١) وللتوسع في ذلك تراجع كتب التفسير، كتفسير ابن كثير، وصفوة التفاسير، وأسباب النزول.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النحل : ٩٠] .

وعندما أمرهم الله تعالى بذلك ، رفضوا أمر الله وخرجوا عنه واتخذوا طريقاً يعاكس طريق الله تعالى ، فكانت النتيجة أن أهلك الله تعالى أهل تلك القرية وخرّبها تخريباً . . .

وهناك قراءة أخرى للآية الكريمة (أَمّرنا) : أي جعلنا المترفين أمراء فشربوا الخمور ، وأكلوا الربا ، ولعبوا القمار ، وأباحوا الأعراض ، وأعلنوا محاربتهم لله ، وانتهكوا حدوده ، وأشاعوا الزنا وجعلوا لها نوادي تُمارس فيها ، ودعايات هنا وهناك !!

إنهم سكروا بنعمة الله التي تدفّقت عليهم ـ وبدل أن يشكروه على ذلك ـ راحوا يعصونه من خلال نعمه!!

وعندها جاء الأمر الإلهي بالدمار والخراب والإهلاك . .

كل هذا سببه أنهم فضلوا الدنيا وشهواتها ، على الدين فكان الأمر بذلك من الله ، من هنا كان الإسراف في التمتع بزينة الدنيا من هذا القبيل ، كما في قول الله تعالى :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

إنها الوسطية التي تميز بها الإسلام دائماً وأبداً : كلوا ـ لا مانع ـ واشربوا ـ لا مانع ـ ومارسوا الحلال ـ لا مانع ـ لكن لا تسرفوا في ذلك ، فالله يكره المسرفين ثم فصّل البيان الإلهي أكثر فقال تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ

سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٢ـ٣٣] .

جاء في صفوة التفاسير ما يلي :

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف : ٣١] أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضرّ بالنفس والمال ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] أي المتعدّين حدود الله فيما أحلّ الله وحرّم ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات : من حرّم عليكم التجمّل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات ، والمستلذات من المآكل والمشارب! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد ، لأن الله حرم الجنة على الكافرين.

قل لهم يا محمد ـ ﷺ ـ : ما حرم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها ، سواءً ما كان منها في السر أو في العلن ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] أي وحرّم المعاصي كلها والعدوان على الناس وأن تجعلوا لله شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ، وأن تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم.

ثم قال صاحب صفوة التفاسير تحت عنوان فائدة :

يروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال ذلك الطبيبُ لأحد العلماء : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال له العالم : قد جمع الله تعالى الطبّ كله في نصف آية من كتابه ، قال : وما هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف : ٣١] فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم في الطب ، فقال

العالم : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة ، قال : وما هي ؟ قال : قوله : «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه**» فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً!![1] .

● كذلك في قول الله تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٦ـ٣٢] .

أي : أعط القرابة من البرّ والصلة ، ولا تبذّر تبذيراً بالانفاق في غير طاعة ، لأن المبذرين على طريقة الشياطين الذين كفروا بنعمة الله .

وإذا لم تعط هؤلاء لطلب رزقٍ تنتظره يأتيك فتعطيهم منه ، فقل لهم قولاً ليناً سهلاً كأن تعدهم بإعطاء الرزق عند مجيئه .

ولا تمسك يدك عن الإنفاق ولا تبسطها في الإنفاق ـ كن وسطاً بين هاتين الحالتين ـ فالله هو الذي يوسّع الرزق ، وهو الذي يضيقه ، وهو العالم ببواطن الأمور وظواهرها يرزق كلٌ على حسب مصالحهم ـ سبحانه وتعالى ـ .

ولا تقتلوا أولادكم بالوأد . . وهذه عادة جاهلية رفضها الإسلام ، خوف الفقر . . فالله هو الرزاق ، يرزقكم ويرزقهم . . واعلموا أن فعلكم هذا فيه إثم عظيم[2] .

---

(١) باختصار وتصرف من صفوة التفاسير للصابوني : ١/ ٤٤٣ـ٤٤٩ .

(٢) تفسير الجلالين : ٢٨٦ .

أما النبي ﷺ فله أحاديث كثيرة تحذر من الغرق في ملذات الدنيا وشهواتها ، ونسيان الآخرين كالمساكين والفقراء .

● من ذلك قوله صلوات الله عليه : **«هلك المكثرون إلا من قال هكذا وهكذا ـ يعني أنفق ـ وقليلٌ ما هم»**[1] .

أي هلك الذين راحوا يجمعون المال من حل وحرام ، ثم لم يؤدّوا حق الله فيه ولم يعطوا الفقراء والمساكين وذا الحاجة منه شيئاً . .

● وقوله أيضاً : **«لا إله إلا الله تمنع من سخط الله ما لم يُؤثروا سفعة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ، ثم قالوا : لا إله إلا الله ، قال الله : كذبتم»**[2] .

ذلك لأن من الخطوط العريضة للشريعة تقديم الدين على الدنيا ، أن يكون رضا الله تعالى مقدمٌ على رضا الآخرين . . أن تكون الدنيا في الجيب لا في القلب!! أما أن يفعلوا عكس الآية الكريمة التي يقول الله فيها :

﴿ . . . وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾

[القصص : ٧٧] .

فينسون الآخرة ويتكالبون على متاع الدنيا ، ويلهثون وراءها ، ناسين أوامر الله ، مرتكبين نواهيه ، ثم عندما يتعرّضون لحالة ما يدّعون أنهم مؤمنون موحدون ، فيردّدون بألسنتهم (لا إله إلا الله) ، فعندها يكونون كاذبين بهذا الإدّعاء ، لأن أفعالهم تنطق بأن ربهم هو المادة ، هو المال ، هي العقارات ، هي الصفقات التجارية ، فكيف ألسنتهم تقول : لا إله إلا الله وأفعالهم تعاكسها ؟!

---

(١) رواه البخاري (٨/١١٦) وأحمد.

(٢) رواه البزار بإسناد حسن، ورواه أبو يعلى (٣٢٧٤).

● وقوله صلوات الله عليه : **«إياكم والتنعّم! فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين»**[1] .

التنعّم : هو الإسراف في التمتع بالشهوات ، ولذلك حذّر النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم أفراد هذه الأمة ـ على مرّ الدهور والأيام ـ من أن يصبحوا متنعّمين مسرفين متمتعين في الشهوات ، لأن هذه ليست من صفات المخلصين : والذين ليس من شأنهم ذلك أبداً.

● وقوله ﷺ : **«الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقّها بورك له فيها ، وربّ متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار»**[2] .

● وقوله ﷺ : **«كلوا واشربوا وتصدّقوا والبسوا ، ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة»**[3] .

وفي هذا الحديث الشريف يبرز الخطّ الوسطي في الإسلام : لا مانع من الأكل والشرب واللباس و.. لكن لا تتكبروا بواسطة ذلك على من حرمهم الله هذه النعم ولا تسرفوا في ذلك.

● وقوله ﷺ : **«إن الذي منع النساء من دخول الجنة هو الذهب والحرير»**[4] وفي رواية أخرى : **«أريت أني دخلت الجنة وإذا ليس فيها أحد أقل من الأغنياء والنساء ، فقيل لي : أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسبون ويمحصون ، وأما النساء فألهاهن الأحمران : الذهب والحرير»**[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٥)، ورواه أحمد في الزهد (٦) وللحديث شواهد كثيرة في كتب الأحاديث والزهد والرقائق.

(٢) رواه الطبراني: (الترغيب والترهيب ٥/ ١٢٣، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٦٤).

(٣) رواه النسائي: (٥/ ٧٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، والبخاري (٧/ ١٨٢) ورواته ثقات، واللفظ هنا لابن ماجه.

(٤) رواه أحمد، وابن حبان. . .

(٥) أورده صاحب الترغيب والترهيب (٣/ ٣٨٤).

وفي رواية أخرى : «**اطّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء والأغنياء**»[1] .

وفي رواية أخرى : «**اطّلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»[2] .

● وقوله ﷺ : «**إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غداً في الآخرة**»[3] .

● وقوله ﷺ : «**تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»[4] .

إنها جملة أخبار توحي بتعاسة من ترك عبودية الله ، وأصبح عبداً للدرهم والدنيا (للمال) والقطيفة (الثياب والأثاث والزينة) والخميصة (الألبسة . . .) ، لكنّا لا نجد إنساناً يقول : أنا عبدٌ لهذه الأشياء ، لكن الواقع الملموس ينطق بكل فصاحة : أن الكثير ممن يبيعون في سبيل الحصول على الدنيا ومتعها المتنوعة دينهم وسعادتهم ورضى ربهم عنهم ، ويشترون سخط الله في سبيل الدنيا !!

وهذه هي العبودية سواءً أقرّوا بها أم لا .

والكثير من الناس عبيد لغير الله ، يخضعون الخضوع المذلّ إلى درجة أن يضحّوا بالشرف والعفاف والدين والمروءة ، في سبيل الحصول على هذه المتع !! إنهم يلهثون وراء الدينار حتى على حساب صحته وسعادته

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد (الترغيب والترهيب ٥/ ١٤٤)، ورواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه البخاري (٧/ ٤٠) ومسلم (٢٧٣٧).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن (الترغيب ٣/ ٤٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٦).

(٤) رواه البخاري (٤/ ٤١) وابن ماجه (٤١٣٦).

الحقيقية ، ظناً منه أنه بتكديس الأموال وتجميعها ينال السعادة. . . وسنتحدث عن السعادة والمال في باب مستقل وكم في الناس اليوم من هؤلاء : ينسى نفسه فيجوع ويعطش. . . وهو مشغول في التفكير في صفقته واستيراده وتصديره ، مغامراً في سبيل الحصول على الدنانير ، مضحّياً كل شيء .

إنه يسحق كرامته في سبيل الدينار. . أليس هذا عبدٌ له ؟!

إنه يتخطى الأعراف والقوانين والشرائع : فيغش ويزوّر ويكذب ويخادع ، كي يحصل على الدنانير ، أليس هذا عبد ذليل تعيس لا يرضى بما قسمه الله له ؟!

إذن : التمتع بلذات الدنيا ونعيمها ، مباح وحلال شريطة أن لا يكون فيه كبر ولا إسراف ، وهذه هي الوسطية التي امتاز بها الإسلام عن غيره ، وقد سطّر التاريخ الإسلامي قصصاً نموذجيةً أختار منها ـ للعظة ـ

● ما رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤) عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال : دخلت على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في مرضه الذي توفي فيه فسلّمت عليه فقال : رأيت الدنيا قد أقبلت ـ ولما تقبل ـ وهي جائية ، وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمون من ضجائع الصوف الأزري ، كأن أحدكم على حسك السعدان ، ووالله لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا!!

من أين لك يا أبا بكر هذه النظرة المستقبلية ؟ أهو وحي بعد رسول الله ؟

أبداً : فالمسألة هي قراءة دقيقة وتحليل دقيق لمجريات الأمور من خلالها دراسة أهداف الإسلام ، ومقاصد القرآن ، وأهداف الشريعة. . . وفراسة المؤمن الذي ينظر بنور الله تعالى. . فقد وقع المسلمون في ذلك

كله ، بل بلغ الترف في العهد العباسي وعند المسلمين في الأندلس إلى حدّ عجيب!![1] .

● بل راح الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى حدٍّ أبعد من ذلك ، محذراً من التنعم في الدنيا ، بل محذراً من الإكثار من الحلال!!

ففي موطأ مالك أن عمر لقي جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ ومعه لحم ، فقال عمر : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه ؟!

فأين تذهب يا جابر من قول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

والعجيب أن الفاروق استدل هنا بالآية الموجهة إلى الكفار ، لكنه أراد : أن المؤمن إذا اعتاد على التوسّع في لذات الدنيا جرّه ذلك إلى تناولها من حلال وحرام ، ثم انقاد إلى البخل فلم يعد ينفق المال فيما أمر الله فيصبح مستحقاً لوعيد هذه الآية ، فرضي الله عن عمر وأرضاه لهذا الورع ولهذه المحاسبة ولهذا الميزان.

* * *

(١) للتوسع راجع كتابنا المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة: في العهد العباسي والأندلسي...

الفصل الثالث

ماذا عن الإنفاق ؟

النفقة ـ وهي اسم من الإنفاق ـ تعني : المبلغ الذي يخرجه الإنسان من ماله ليحصل به على حاجته أو حاجة غيره من غذاء ومسكن وملبس ودواء ، وما يلحق ذلك من مطالب المعاش والحياة.

وبالإنفاق يتحقق الرخاء للمجتمع . وهذا عكس الإدخار والاكتناز الذي يشلّ الحركة الاقتصادية ويكدّس الأموال ويجمّدها.

ووجوه الإنفاق :

١ـ **محرم مذموم** : كالربا ، والقمار.

٢ـ **واجب ومحمود** : كأداء الزكاة ، والإنفاق على الأولاد.

٣ـ **مباح وجائز** : كلذات النفس المباحة ـ شريطة عدم الإسراف ـ

أما شروط الإنفاق : فله شروط عديدة أهمها :

١ـ أن يكون في سبيل الله : ليعود الخير عليه وعلى المجتمع كله ، وإلاّ يتحقق فيه قوله تعالى :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ . . . ﴾ [آل عمران : ٩١] .

٢ـ أن تكون الصدقة خالصة من المنّ والأذى : كما في صريح القرآن الكريم :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ . . . ﴾ [البقرة : ٢٦٢ـ٢٦٤] .

٣ـ أن يكون الإنفاق من طيب الكسب : ذلك لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ـ من أرباحكم التجارية ـ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ـ من أرباحكم الزراعية والمعادن والركاز ـ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

٤ـ أن يبتعد المنفق عن وسوسة الشيطان : ذلك لأن الشيطان يخوّف الإنسان من الفقر لذلك يحذره من الإنفاق ، كما قال تعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

وقد روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ :

«إن للشيطان لمّة بابن آدم ، وللملك لمّة ، فأما لمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان» .

٥ـ أن يبتغي المنفق في إنفاقه عين الحكمة : كما قال الإمام مالك بن أنس : «الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له»، أي أن ينفق في المحل المناسب وأن يسير على ما شرع الله في الإنفاق . . .

٦ـ أن يعلم أن الإنفاق الخفي خير من الإنفاق العلني.

٧ـ أن يعلم أن الإنفاق يعود على المنفق أولاً.

٨ـ أن يعلم أن أحقّ الناس بالإنفاق عليهم هم الفقراء.

٩ـ أن ينفق ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، كما قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقد فصّل ذلك كله د. البابلي في كتابه المختصر (المال في الإسلام) لمن أراد الاستزادة والتفصيل، وفي تاريخنا السامق نماذج رائعة من انفاق الرعيل الأول، من ذلك ما رواه السيوطي بسنده المتصل إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال:

أسلم أبو بكر يوم أسلم وفي منزله أربعون ألف درهم، فخرج إلى المدينة في الهجرة وما له غير خمسة آلاف، كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام.

وروى أبو داود والترمذي، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت اليوم أسبقُ أبا بكر، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً، وعلى هذا المنوال سار الفاروق، ثم من بعده عثمان رضي الله عنهم جميعاً، وكذلك علي بن أبي طالب، وكذلك عمر بن عبد العزيز.

وكلنا يعلم قصة أبي الدحداح والتي أخرجها الهيثمي وفي الإصابة،

والطبراني ، وفي حياة الصحابة مرويةً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنها قال :

لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة : ٢٤٥] قال أبو الدحداح : يارسول الله ، إن الله يريد منا القرض؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنا يدك ، قال : فناوله يده ، قال : قد أقرضت ربي حائطي ـ وحائطه فيه ست مائة نخلة ـ فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها .

فنادى : يا أم الدحداح ، قالت : لبّيك .

قال : اخرجي فقد أقرضّته ربي!![1] .

ومثلها قصة أبي طلحة عندما تصدّق بنخله ببيرحاء ، ومثلها قصة عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما تصدّق بأرضه في خيبر ، وإنفاق عثمان على جيش العسرة كله!! ومثلها إنفاق عبد الرحمن بن عوف وتصدّقه بكل القافلة ـ التي فيها سبع مائة بعير محمّلة بالمواد والأغراض والتجارات، ـ وكذلك انفاق الصحابيات[2] ، رضي الله عنهم جميعاً.

* * *

(١) للتوسع راجع حياة الصحابة للكاندهلوي: ٢/ ١٦٢.
(٢) للتوسع في إنفاق الصحابيات يراجع كتابنا: إليك يا أختاه.

الفصل الرابع

إلى الأغنياء

هذه بعض الوصايا الموجهة للأغنياء ، ورد بعضها في الديانات السابقة ، وأودرت الشريعة الإسلامية بعضها الآخر .

١ـ عند الأقدمين :

ففي الديانة اليهودية مثلاً : ترغيب المنفقين على الفقراء بالستر ، وترهيب المعرضين عنهم باللعنات : (الأمثال ٢٨ـ٢٧)

«ومن يعطي الفقير لا يحتاج ولمن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة»

وعند الديانة المسيحية : «بيعوا مالكم وأعطوا صدقة» (لوقا ١٢/ ٣٣)

«إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء» (انجيل متى ١٩/ ٢١)

«واحترزوا من أن تضعوا صدقتكم قُدَّام الناس لكي ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر» (متى ١/ ٦)

«تعالوا يا مباركي أبي رِثُوا الملكوت المُعَدُّ لكم منذ تأسيس العالم ، لأني جعت فأطعمتموني ، عطشت فسقيتموني ، كنت غريباً فآويتموني ، عرياناً فكسوتموني ، مريضاً فزرتموني ، محبوساً فأتيتم إليّ ، فتجيبه الأبرار حينئذٍ قائلين : يا رب ، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ؟ أو

عطشاناً فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك ؟ أو عرياناً فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك ؟

فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم. (إنجيل متى ٢٥/ ٣٤ـ٤٠)

إلى غير ذلك مما فصّله د . أبو يحيى في (اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة) .

٢ـ أما الشريعة الإسلامية :

فراحت تعطي التوجيهات للأغنياء ، ضمن الخطّ المعروف لديها والمترادف مع إلزاميات الإنفاق والتبرع والزكوات ، وأرى أن أهم هذه التوجيهات هي :

● **تواضعوا لعباد الله . . ومدّوا يد العون لهم :**

ذلك لأن النبي ﷺ رغّب في التواضع ، وحذّر من الكبر فقال عليه الصلاة والسلام : **«إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحدٌ على أحد»**[١] وقوله أيضاً :

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[٢] .

وقوله : **«ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتلّ جواظ مستكبر»**[٣] .

وقوله : **«الكبر بطر الحق ، وغمط الناس»**[٤] .

لذلك جاءت سيرة حياة المصطفى صلوات الله عليه خير تطبيق لهذه

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، وابن ماجه، والبيهقي.
(٢) رواه مسلم، وابن ماجه، والترمذي، وأبو داود، وأحمد، والبغوي.
(٣) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والبغوي، والترمذي.
(٤) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وأحمد، والبيهقي.

الخصلة الرفيعة ، ثم سار السلف الصالح من هذه الأمة على هذا النهج المحمدي ، ثم تتالت الأيام فراح المصلحون والدعاة يحذرون من الكبر ، من ذلك قول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ التكبر شرٌّ من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى ، والمشرك يعبد الله وغيره[1] .

وهنا يطالب الإسلام الأغنياء بأن لا يتكبروا على الفقراء ، ولذلك قال العلماء في تفسير كلمة البطر ـ الواردة في الحديث الشريف السابق ـ : أنه سوء احتمال الغنى ، ثم قالوا : إن معنى غمط الناس هو أن يحتقرهم ، بل لا يراهم يساوون أي شيء!!

كذلك من الأمور الملفتة للنظر ، ربط النبي صلوات الله عليه بين التواضع وبين رضا الله تعالى ، وبين التصدّق بالأموال : فقال عليه الصلاة والسلام :

«ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه»[2] .

● **لا تكنزوا المال في صناديقكم !!**

يقول الله تعالى في معرض الذّم للذين يكنزون المال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ـ٣٥] .

وجاء تفسير ذلك في قول المصطفى عليه الصلاة والسلام :

---

(١) للتوسع في هذا البحث يراجع كتابنا مكارم الأخلاق عند ابن تيمية: ٢٢٥.
(٢) رواه الإمام مسلم.

«بشر الكانزين بكيّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكيّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم»[1] ، لكن لم ذلك كله ؟!

يقول القرطبي : قال علماؤنا : فخروج الرضف من حلمة ثديه إلى نفض كتفه لتعذيب قلبه وباطنه حين امتلأ بالفرح بالكثرة في المال ، والسرور في الدنيا ، فعوقب في الآخرة بالهمّ والعذاب[2] .

هذه هي نظرة الإسلام للمال : أن يبقى في يد الناس ، يدور من هنا إلى هناك ، ليعود بالنفع على الجميع ، أما إذا كُنز في الصناديق والبنوك و.. عندها حُجب عن منفعة الآخرين ، نال كانزه الإثم الكبير وارتكب المعصية الشديدة التي رأينا تلك الحالة تؤدي ـ في المنظور الإقتصادي ـ إلى ضائقة للكانز وللمجتمع كله ، ولذلك يروي أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ : **«كنت أمشي مع النبي ﷺ وهو ينظر إلى جبل أحد ، فقال : ما أحب أن يكون لي ذهباً ويمسي عليّ ثالثة وعندي منه شيء»** وللحديث رواية أخرى : **«وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدين ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا حثاً بين يديه وهكذا عن يمينه وهكذا عن شماله»**[3] .

● **اتركوا الحرام كله**

ذلك لأن أكل الحرام ـ بصوره المتعددة والمتنوعة ـ يؤدي إلى نتائج وخيمة ، وقد ورد في تاريخنا أمور لو ذكرناها في عصرنا لرأينا البون الواسع بيننا وبينهم!!

---

(١) رواه مسلم.
(٢) تفسير القرطبي: ٨/١٢٨.
(٣) حديث متفق عليه.

١ـ قال أحمد بن أبي الحواري :

تمنيَّت أن أرى أَبا سليمان الدَّاراني في المنام ، فرأيته بعد سنة ، فقلت له : يا معلّم ، ما فعل الله بك ؟ فقال : يا أحمد ، جئت من باب الصغير ، فلقيت وسق شيح ، فأخذت منه عوداً ، ما أدري تخلّلت به أو رميت به ، فأنا في حسابه منذ سنة إلى هذه الليلة!!![1] .

لذلك كانت رابعة العدوية تقول لأبيها ذات يوم :

يا أبهْ ، لستُ أجعلك في حلّ من حرام تطعمنيه ، فقال لها : أرأيت إن لم أجد إلا حراماً ؟

قالت : نصبر على الجوع في الدنيا خير من أن نصبر على النار في الآخرة!![2] .

وعندما نعلم ذلك ، يدخل في يقيننا ما حدث مع سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ روى عكرمة بن عمّار : حدثنا الأصفر ، قال :

قيل لسعد بن أبي وقاص : كيف تُستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ ؟

قال : ما رفعت إلى فمي لقمةً إلا وأنا عالم من أين مجيئها ، ومن أين خرجت[3] .

ثم ماذا وراء اللهث وراء الحرام ؟

قال الليث : رأى موسى ـ عليه السلام ـ رجلاً رافعاً يديه ، وهو يسأل الله مجتهداً فقال موسى ـ عليه السلام ـ : أي ربّ عبدك دعاك حتى رحمته ، وأنت أرحم الراحمين ، فما صنعت في حاجته ؟

---

(١) بستان العارفين للنووي: ١١٢.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٢٨٥.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: ١/ ٢٢٧ـ٢٢٩.

فقال الله : يا موسى ، لو رفع يديه حتى ينقطع ، ما نظرت في حاجته حتى ينظر في حقّي[1] .

● **لا تسرفوا ، لا تبذّروا**

كما رأينا فالإسلام لا يذم المال لذاته ، إنما يذّم سوء استعمال هذا المال من تبذير وإسراف ، إنما المال وسيلةٌ لا غايةٌ : وسيلة لتحريك عجلة الحياة ، وتأمين الحاجات للإنسان . . لذلك جاء الذم في كتاب الله تعالى بصيغ متعددة ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٦ـ٢٧] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

وهذا الكلام لا يعني أبداً : أن ينفق الإنسان كل ما لديه ثم يترك عياله وورثته فقراء يطلبون الناس ، وهذا ما تشير إليه الأحاديث الشريفة لتدلّنا على الوسطية التي تحدثنا ونتحدث وسنظل نتحدث عنها ، من ذلك قوله ﷺ :

يروي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ عاده في عام حجّة الوداع من وجع اشتد به ، فقال سعد : «إني قد بلغ بي من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدّق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، فقلت : بالشطر ؟ فقال : لا ، ثم قال : الثلث ، والثلث كبير ـ أو كثير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك»[2] .

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: ١/٢٢٧ـ٢٢٩.

(٢) رواه الإمام البخاري.

كذلك قوله صلوات الله عليه : «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قوته»[1] .

والحديث طويل ، وقد ألّف العلماء في هذا الموضوع كتباً لمن أراد الاستزادة.

● **انظروا إلى الفقراء على أنهم إخوانكم**

الأخوة ، والمحبة ، والتعاون ، والمواساة بالمال ، وتفريج الهموم والكروب.

هذه أمور دعا الإسلام إليها وحضّ عليها.

وقد أفرد الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين باباً كاملاً وهو يحدثنا عن الأخوة في الله ، والبغض في الله ، ثم صنّف المواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب أعلاها : التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

أي كانوا خلطاء في الأموال ، لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من يقول : نعلي ، لأنه أضافه إلى نفسه!!

وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له ، وكان غائباً ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ، ففتحه وأخذ حاجته ، فأخبرت الجارية مولاها ، فقال : إن صدقتِ فأنت حرّة لوجه الله ، سروراً بما فعل!!

وجاء رجل إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقال : إني أريد أن أواخيك في الله ، فقال : أتدري ما حق الإخاء ؟ قال : عرّفني ، قال : أن لا تكون أحقّ بدينارك ودرهمك منّي!!

قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذهب عنّي.

---

(١) رواه الإمام مسلم.

وقال علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ لرجلٍ : هل يدخل أحدكم يده في كمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال : لا ، قال : فلستم بإخوان!!

وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ لعشرون درهماً أعطيها أخي في الله ، أحبّ إليّ من أن أتصدّق بمائة درهم على المساكين ، ولأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله ، أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة!![1] .

● **تبرّعوا.. تصدّقوا.. أحسنوا.. أدّوا الزكاة..**

لا يهدف الإسلام من وراء ذلك كله أن يأخذ الأموال من الأغنياء ليدعها في أيدي الفقراء تشفّياً وحقداً.. إنما يهدف إلى التعاون.. إلى المساعدة.. إلى أن تشيع الأخلاق الفاضلة من رحمةٍ وتعاونٍ وأخوة وإيثارٍ ومساواة.. لذلك نجد المصطفى صلوات الله عليه يحدثنا عن ذلك فيقول :

«الصدقة بعشرة ، والقرض بثمانية عشر ، وصلة الإخوان بعشرين ، وصلة الرحم بأربعةٍ وعشرين»[2] .

ويقول أيضاً : **«الصدقة تدفع ميتة السوء»**[3] .

ويقول أيضاً : **«استنزلوا الرزق بالصدقة»**[4] .

ويقول أيضاً : **«حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدّوا للبلاء الدعاء»**[5] .

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٤٢ـ٢٨٤.
(٢) رواه الحاكم.
(٣) رواه الطحاوي.
(٤) رواه البيهقي.
(٥) رواه الطبراني.

ويقول أيضاً : «إن لله أقواماً اختصّهم بالنعم لمنافع العباد ، يُقرّهم فيها ما بذلوها ، فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم»[1] .

ويقول أيضاً : «ما تلف مال في برّ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة»[2] .

ويقول أيضاً : «أفضل الصدقة أن تُشبع كبداً جائعاً»[3] .

ويقول : «إتقوا النار ولو بشقّ تمرة»[4] .

● لا تحتكروا . .

للاحتكار صور متعددة ، لكن جميعها يدخل تحت تعريف الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه : الإحتكار هو كل ما أضرّ الناس حبسه .

وطبعاً حرم الإسلام الاحتكار ووجه الحكومة إلى أن تتدخل لتكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل . . ويدخل في ذلك احتكار الأقوات واللباس . . وفي ذلك يقول الإمام ابن عابدين ـ رحمه الله ـ

الاحتكار لغة : احتباس الشيء انتظاراً لغلائه ، وشرعاً : شراء طعام ونحوه وحبسه إلى الغلاء ، وورد في تحريمه أحاديث كثيرة ، فعن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يحتكر إلا خاطئ» .

وقوله أيضاً : «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» .

وقوله : «من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطئ» .

---

(١) رواه الطبراني وأبو داود.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه الشهاب.
(٤) متفق عليه.

وقوله : «من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه» .

وقال صاحب الموسوعة الاقتصادية الإسلامية : وخطر الاحتكار على الإقتصاد العالمي أصبح في غير حاجة إلى مزيد من البيان ، فكلنا نعلم كيف تغلغل الإحتكار ـ الظاهر والخفي ـ في أكثر ميادين الإنتاج العالمي .

وكيف تحالف المحتكرون من أقطاب المال عبر حدودهم مع زملائهم في بلاد أخرى ، ونجحوا في تحديد الأسعار التي تؤتيهم بالربح الفاحش ، وخلقوا الأزمات وتآمروا على بخس أثمان المواد الخام التي تنتجها البلاد النامية إضراراً بأكثر من ثلثي سكان الأرض ، ولا زالت جهود الأمم المتحدة ـ العناصر الطيبة فيها ـ تتوالى وتتعثر في محاولة التخفيف من ويلات هذا الداء الوبيل!![1] .

تلك هي الصورة البشعة للإحتكار ، وهذا ضرره العالمي ، لذلك جاء تحريمه صريحاً في نظر الشريعة الإسلامية.

● **اشكروا المنعم الحقيقي.. وتحدّثوا بنعمه**

ولأهمية هذا الموضوع فقد كرر بيان الله تعالى الشكر أكثر من سبعين مرة وذلك كي يعلمنا الله تعالى كم له علينا من نعم ـ وهي التي لا تعدّ ولا تحصى ـ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى : ١١] .

وقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وعلّق ابن القيم رحمه الله على ذلك بقوله : التحدث بالنعمة يكون بإحدى طريقين اثنين :

١ـ ذكر النعمة والإخبار بها : «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ،

---

(١) الموسوعة الاقتصادية الإسلامية: د. محمد الجمّال: ٢١٠ـ٢١١.

ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب»[1] .

٢ـ أن التحدث بالنعمة هنا هو الدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة كما قال مجاهد : هي النبوة ، بينما قال الزّجاج : أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله . . ثم قال ابن القيم : والصواب أنه يعمُّ النوعين ، إذ كل منهما نعمى مأمور بشكرها ، والتحدث بها ، وإظهارها من شكرها .

والواقع أن نعم الله كثيرة وكثيرة ، لو أن الواحد منا سجد لله طيلة حياته لم يوف حق نعمة البصر عليه ، كيف بنعم السمع والعقل والصحة ؟ وكيف بنعمة المال والعقارات ؟ لذلك عندما يتحدث بيان الله تعالى عن الطيبات والرزق ، يعلّق بها الشكر مباشرة كما في قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2] [البقرة : ١٧٢] .

● **إن لم تريدوا إعطاء الفقراء . . فليكن ردّكم عليهم لطيفاً!!**

يوجّه النبي الأكرم صلوات الله عليه الناس إلى الرفق وإلى خفض الجناح وإلى اللين في مواضع كثيرة منها قوله : **«الرفق يُمن والخُرق شؤم»**[3] .

وقوله : **«يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا يُنزع عن شيء إلا شانه»**[4] .

---

(١) رواه أحمد والبيهقي وابن أبي الدنيا.

(٢) وللتوسع في الحديث عن الشكر يراجع كتابنا: الأخلاق الإسلامية للناشئة: ٣/ ١٥٩ـ٢٠٢.

(٣) رواه الطبراني، والبيهقي.

(٤) رواه مسلم.

وقوله : «يا عائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيتٍ كرامة دلّهم على الرفق»[1] .

وقوله : «يا عائشة إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من خير الدنيا والآخرة»[2] .

هذا توجيه نبوي إلى عامة الناس ، لكن هنا يكون أجمل من الأغنياء حين يأتيهم الفقراء ، يطلبون منهم المساعدة والمعونة ، فإن كان وأعطوهم فلا بأس . وإلا فلا يكون الردّ عليهم عنيفاً أو توبيخاً أو تقريعاً ، ذلك لأن الكلمة هي الكلمة ، لكن شتان بين اللطف في الكلام والردّ ، والعنف فيه والتقريع!! كل ذلك من أجل أن تشيع الأخلاق الحميدة في المجتمع ، فلا يشعر الغني بالأنفة ، والتكبّر على عباد الله ، ولا يشعر الفقير بالذلة والمهانة والاحتقار من الناس.

لكن حين يطبقّ المجتمع ـ بكل فئاته ـ توصيات الإسلام ، بحيث يتحلّى الفقير بالعفة والصبر ، ويتحلّى الغني بالإحسان وخفض الجناح.. وتشيع الأخلاق الفاضلة.. فيتعاون الناس فيما بينهم ويتراحمون.. عندها لن يحقد الفقير على الغني أو يحسده أو يتمنى زوال النعمة عنه.. كما لن يستحقر الغني الفقير أو يذله وقد تحدث الإمام الغزالي في الجزء الثالث من إحياء علوم الدين تفصيلاً عن خلق الرفق والتلطف ، لمن أراد الزيادة .

● **كونوا كرماء أسخياء.. ولا تكونوا بخلاء أشحّاء!!**

الكرم لفظ جامع للمحامد والمحاسن لذلك سمى الله تعالى ووصف

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود.

(٢) رواه أحمد.

نفسه بالكرم ، وبأنه الأكرم ، عندما قال تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٣ـ٥] .

أما الشحّ ، فيحذر المصطفى صلوات الله عليه منه فيقول ـ فيما يرويه أبو هريرة ـ :

«إياكم والشحّ ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[1] .

بل زاد الأمر تهويلاً فقال عليه الصلاة والسلام : **«لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبدٍ أبداً»**[2] .

وعلق الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

فقال : الشحّ أصل البخل ، وأصل الحسد ، وهو ضيق النفس وعدم إرادتها وكراهتها للخير على الغير ، فيتولد من ذلك امتناعه من النفع وهو البخل ، إضرار المنعم عليه وهو الظلم ، وإن كان في الأقارب كان قطيعة.

وحصر المفلحين فيمن يوق شح نفسه ، والشحيح : الذي لا يحب فعل الخير ، والذي يضرّ نفسه ، ويكره النعمة على غيره .

والبخل جنس تحته أنواع : كبائر ، وغير كبائر ، كما في قوله تعالى :

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد.
(٢) رواه النسائي وأبو داود والحاكم.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

والجميل أن نقرأ أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حيث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

«يا أيها الناس ، إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً ، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق ، ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلّقاً بغصن منها حتى يورده الله الجنة ، ألا إن اللؤم شجرة في النار وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم لئيماً لا يزال متعلقاً بغصن منها حتى يورده الله في النار»[1] .

وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ واصفاً سيدنا رسول الله ﷺ :

كان رسول الله أجود الناس (بالخير) ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل ـ عليه السلام ـ وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، قال : فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[2] .

وقد سطر الرعيل الأول لهذه الأمة صفحات ناصعة مشرقة من الكرم والجود والسخاء والإيثار[3] .

حبذا لو تأسّى بها أغنياء المسلمين اليوم ، فأعطوا الفقراء وأكرموهم وجادوا عليهم ليكون الله تعالى خير معوّض لهم وخير حافظ لأموالهم.

وما أجمل أن نحمل في ذاكرتنا وعقولنا قول حبيبنا المصطفى ﷺ :

---

(١) كنز العمال: ٣/ ٣١٠.
(٢) صفة الصفوة: ١/ ٦٩.
(٣) راجع حياة الصحابة: ٢/ ٥٧٦.

«السخيّ قريب من الله قريب من الناس ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، ولسخيّ جاهل أحب إلى الله من بخيل عابد»[1] .

● **سارعوا إلى الخير ، وتنافسوا فيه :**

قال الإمام علي لجابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ : «يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال» .

وأبواب الخير كثيرة : كإغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المسلمين ، وتفريج كروبهم وهمومهم ، وإدخال السرور عليهم ، واصطناع المعروف ، وإكرام الضيف . . .

وفي ذلك يقول المصطفى صلوات الله عليه ـ فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ :

«إن لله عند أقوام نعماً يقرّها عندهم ماداموا في حوائج الناس ما لم يملّوا ، فإذا ملّوا نقلها الله إلى غيرهم» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«من سعى لأخيه المسلم في حاجة ، فقضيت له أو لم تقض ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر ، وكتب له براءتان من النار ، وبراءة النفاق»** .

وروى البزار والطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

«الخلق كلهم عيال الله ، فأحبّ خلقه إليه أنفعهم لعياله» .

وروى أحمد بسنده المتصل إلى سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال :

---

(١) رواه ابن حبان.

«كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ ، وأن تُفرغ من دلوك في إناء أخيك» .

وروى الديلمي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : «أكرم الناس على الله رجل نظر إلى امرءٍ هو دونه فقضى حاجته» .

وروى الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال : «صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة تطفيء غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف» .

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] .

● **لا تظلموا**

للظلم أنواع كثيرة ، من ذلك أن يظلم البائع الناس في بيعهم وشرائهم ، وأن يظلمهم في الوزن ، وقد خصّ القرآن الكريم سورة من سوره وهي سورة المطففين ليتحدث عن هذه المشكلة ، فقال الله تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين : ١-٦] .

إنه تحذير شديد اللهجة ، يوجّهه رسول الله ﷺ إلى التجار فيقول :

«إنكم قد وليتم أمرين ـ الكيل والميزان ـ هلكت فيهما الأمم السالفة قبلكم»[1] .

ويلفت النظر إلى قضية خطيرة يقع فيها غالبية التجار ، وهي الحلف في

---

(١) رواه الترمذي (١٢١٧).

البيع ، فيقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه قتادة رضي الله عنه :

«إياكم وكثرة الحلف في البيع ، فإنه ينفّق ، ثم يمحق»[1] .

ثم يبيّن الآداب التي على التاجر أن يتحلى بها ، مثل التساهل والتسامح ، فيقول صلوات الله عليه :

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى»[2] .

وقال أيضاً ـ في رواية عثمان بن عفان عن النبي صلوات الله عليه أنه قال : ـ

«أدخل الله عز وجل رجلاً كان سهلاً ـ مشترياً ، وبائعاً ، وقاضياً ، ومقتضياً ـ إلى الجنة»[3] .

إلى غير ذلك من توجيهات تحضّ الغني التاجر أن يرفق بالفقير والمشتري ، حتى يجعل الشارع كل إجحاف بالآخرين مطل وظلم يحاسب الله عليه . . . كيف لا وهو الذي حرّم الظلم على نفسه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت : ٤٦] .

● **حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا !!**

قال ابن قيمّ الجوزية ـ رحمه الله ـ : المحاسبة أن يميّز العبد ماله ممّا عليه ، ولها ثلاثة أركان :

١ـ أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك فحينئذٍ يظهر لك التفاوت ، وتتبين لك حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية ، وعندها تصيح : **«أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي»**[4] .

---

(١) رواه مسلم (١٦٠٧)، والنسائي (٧/ ١٤٦).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٢١١) والترمذي (١٣٢٠).
(٣) رواه النسائي (٧/ ١٨).
(٤) جزء من حديث رواه البخاري (٦٣٠٦) والترمذي (٣٣٩٠) وأبو داود (٥٠٧٠).

٢ـ أن تميز بين ما عليك للحق وبين ما لك : فالذي عليك للحق التزام الطاعة واجتناب المعصية والذي لك هو المباح الشرعي فأدّ ما عليك يؤتك ما لك.

٣ـ أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك ، وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك «**لا تظهر الشماتة لأخيك ، فيرحمه الله ويبتليك**»[١] .

لكن الحساب يكون على قدر النعم... إذاً كم ستكون الوقفة للحساب أيها الإخوة الأغنياء ؟ والمشكلة أن كل قضية عليها سؤال واحد : الصحة والشباب ، إلاّ أن الأموال عليها سؤالين : من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه!!

فالقضية إذن دقيقة ، وكل حركة وتصرّف محسوب علينا ، ألم يقل الله تعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

إذن ما العمل ؟!

يجب أن يجعل كل واحد منّا لنفسه حساباً يضع في أيمنه الأعمال الحسنة وأعمال الخير.. (ما له) وفي الجانب الأيسر الأعمال السيئة والديون و... (ما عليه).. ثم لينظر كل آخر أسبوع أو كل آخر شهر ، ثم ليرى رصيد ذلك إيجاباً ـ فليحمد الله ـ أو سلباً : فليجدَّ ، وليعلم أن حساب الله أشدّ وأدقّ وليفعل الخير وليبادر إلى أعمال البر و... ألم يقل رسول الله ﷺ : «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم**»[٢] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٨) والبغوي (١٣/ ١٤١) وأبو نعيم (٥/ ١٨٦).

(٢) رواه الترمذي.

● **جاهدوا بأموالكم في سبيل الله. . .**

لا ينحصر الجهاد في سبيل الله في الخروج للغزو ، والتحام السيوف مع الرقاب و. . إنما هناك جهادٌ آخر هو الجهاد بالمال ، بحيث لهذا اللون أهمية كبيرة ، واستلهامنا هذا من سيرة النبي صلوات الله عليه ، حيث راح يحضّ الناس في غزوة تبوك على الإنفاق في سبيل الله. . فما كان من سيدنا عثمان رضي الله عنه إلاّ أن جاء بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها[1] ، وبألف دينار فنثرها في حجر المصطفى ، فقال عليه الصلاة والسلام : **«لا يضر عثمان ما فعل بعدها»**[2] .

وقصة اليهودي الذي كان له بئر يسمى بئر رومة وكان يتحكّم بالمسلمين ـ مشهورة ـ حيث انتدب رسول الله ﷺ الناس أن يخلّصوهم من هذا اليهودي ، فجاء عثمان رضي الله عنه فاشترى البئر هذا وأوقفه للمسلمين ، لذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه : اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين : حين حفر بئر رومة وحين جهّز جيش العُسرة ـ تبوك ـ[3] .

هذا كله لمن أراد أن يشتري الجنة ، فالإنفاق لون من ألوان الجهاد لا يلتفت إليه إلا الصالحون ، الذين رأوا الدنيا وسيلة للوصول إلى الهدف الأسمى وهو دخول الجنة ، التي يقول النبي ﷺ فيها : **«الموضع سوط في الجنة خيرٌ مما بين السماء والأرض»**[4] .

لذلك بادروا أيها الأغنياء ، واستغلّوا هذه المادة ـ الأموال ـ التي وضعها الله بين أيديكم ليمتحنكم ثم يحاسبكم عليها. . جاهدوا فيها. .

---

(١) رواه الطبراني والترمذي وأحمد والحاكم، والحلس: الكساء الذي يوضع على ظهر البعير.

(٢) رواه الترمذي في سننه، وأحمد في مسنده.

(٣) مختصر المحاسن المجتمعة للصفوري: ١٤٨.

(٤) رواه ابن حبان.

أنفقوا منها على فقراء الله وفي سبيل الله.. والحذار أن تُسكركم لذاتها وشهواتها فتنسوا الجهاد في المال وعندها يتحقق قول المصطفى ﷺ :

«ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها»[1] .

● لا ترابوا..!!

الحديث عن الربا طويل متشعّب أَلَّفَ فيه العلماء كتب ومجلدات ، لكن نختصر منه ما يلي :

أن الربا هي الزيادة مطلقاً ـ لغةً ـ وهي الكسب الحرام ـ شرعاً ـ وورد تحريمه في القرآن في أماكن متعددة : البقرة /٢٧٥ـ٢٨١/ وآل عمران /١٣٠ـ١٣٦/ والروم /٣٩/ ووضع الإسلام فيما يقابل الربا الإنفاق في السراء والضراء والتي جعلها من صفات المتقين ، ووضع الزكاة أيضاً بمقابل الربا.

وشدد الإسلام على تعاطي أموال الربا : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

وصعَّد الأمر أكثر فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

وعلق القرطبي في أحكام القرآن (٣/ ٣٦٣) على ذلك بقوله :

هذا وعيد إن لم يذروا الربا ، والحرب داعية القتل ، ثم نقل عن ابن عباس قوله : من كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضُرب عنقه...

«إن الربا ممحقة للمال ، وإن تراكم بين أيدي الناس ، لأن انحصاره في أيدي هؤلاء القلة من المرابين والمكتنزين له ، يعدم أو يوقف تداوله

---

(١) رواه الترمذي والطبراني.

بين الناس ، كما أنه لا يعود بالنفع عليهم ، ولا يستفيد منه أولئك المرابون لأنهم يحرصون على جمعه وعدم التصرّف به ، ليزداد عندهم ويتكاثر ، فتحلّ الضائقة بالجميع خلافاً للصدقات على اختلاف أنواعها فإنها لا تتحقق إلا بالإنفاق وبذل المال .

وتجدر الملاحظة من أن رب العالمين وضع كلمة (يربي) المشتقة من الربا في مقابل كلمة (يمحق) لأن معنى الربا في الأصل هو الزيادة والنماء ، وقد استعمله ـ سبحانه ـ ليشير إلى أن الصدقات تتضاعف وتنمو خلافاً للربا الذي يتضاءل فتذهب بركته وإن كان كثيراً ، ويعود على المجتمع الذي يفشو فيه بالبلاء والخسران»[1] .

أما أضرار الربا : ١ـ الكل أصيب به والعياذ بالله . ٢ـ الربا آفة اجتماعية . ٣ـ المرابي في كسل ووسواس دائم . ٤ـ ضرر القرض بفائدة . ٥ـ المرابي غير أخلاقي وغير إجتماعي[1] .

● **آثروا الفقراء على أنفسكم !**

الإيثار ضد الشح ، فإن المؤثر على نفسه تاركٌ لما هو محتاج إليه ، والشحيح حريصٌ على ما ليس بيده ، فإذا حصل بيده شيء شحّ عليه ـ كما قال ابن القيمّ رحمه الله ـ والإيثار شيء عظيم لا يستطيع أي إنسان فعله ، إذ أن النفس لتجنح نحو الشح والبخل وحبّ المال ، فإن استطاع الإنسان التغلّب عليها وأنفق ، بل آثر غيره كان رجلاً عظيماً.

إنه تحطيم (للأنا) القابعة في النفوس ، والتي تنمو وتتضاعف وتتضخم ـ خاصة إن كان الإنسان غنياً أو ذا منصبٍ ـ حتى توصل الإنسان لأن يقول : أنا ربكم الأعلى!![2] .

---

(١) للتوسع راجع المال في الإسلام للدكتور البابلي: ١٣٧ـ١٤٨.

(٢) وهذا ما قاله إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. =

وهل هناك من لعنةٍ تمحق الفضائل.. وتحرق أعمال الخير.. وتُشعل الحروب بين الناس أكثر من لعنة الأنانية! ؟

أما الرعيل الأول من هذه الأمة فقد راحوا يطبقون هذه الخصلة ـ الإيثار ـ إلى درجة قد تبدو غريبة في ايامنا هذه، من ذلك :

ما رواه الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت : لا ـ والذي بعثك بالحق ـ ما عندي إلا ماء!! ثم أرسل إلى أخرى، فقالت، مثل ذلك، حتى قلن كلهنّ مثل ذلك، فقال : «**من يضيّف هذا الليلة، رحمه الله ؟**» فقام رجل من الأنصار، فقال : أنا يارسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا، إلا قوت صبياني.

قال : فعلّليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوّميهم، فإذا دخل ضيفنا، فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل ـ وفي رواية ـ فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال : فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين.

فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، فقال : قد عجب الله من صنعكما، بضيفكما، زاد في رواية : فنزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] [الحشر : ٩].

● **لا تصرفوا أوقاتكم على التفنّن بالأكل !!**

كما قلنا سابقاً، فالإسلام لا يطالب اتباعه بترك الدنيا من مأكل وملبس، إنما يطالبهم أن يمسكوا بالميزان الحق ليعلموا أن الدنيا بما فيها إنما هي دار عبور للآخرة، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ

---

(١) راجع حياة الصحابة للكاندهلوي: ٢/ ١٧٠ـ١٧١.

فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب ، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل ، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات ، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات ، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين : إن الأكل من الدين ، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين : ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ، ويقوى به على التقوى ، فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى ، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى ، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ، ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه ، وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمامها ، ويلجم المتقي بلجامها حتى يتّزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر ، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس ، قال ﷺ :

«إن الرجل ليؤجر حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته»[1] .

وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين ، مراعياً فيه آدابه ووظائفه[2] .

ولذلك آداب وأحوال ، نجدها مبثوثة في كتب الحديث والوعظ والفقه . . .

أهمها : أن يكون المصدر حلالاً ، والإنفاق في وجوه الحلال ، والشعار هو الوسطية ، والاعتدال .

---

(١) رواه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٢) للتوسع في ذلك راجع إحياء علوم الدين : ٢/ ٤٦ـ٧١ .

● **تعلّموا : أين هي الصفقة الرابحة! ؟**

الأغنياء والتجار.. يبحثون ضمن الإعلانات وفي الأسواق وفي التصدير والاستيراد.. عن الصفقات التجارية الرابحة ، لكن الإسلام له رأي آخر : اجتمع رأي الصليبيين بقيادة امبراطور ألمانيا على غزو دمشق ، وكان يدير أمرها (معين الدين أنر) أحد مماليك (طغتكين) ، ولما حاصر الصليبيون المدينة ، خرج أميرها بجيشه لقتالهم ، فخرج معه الإمام يوسف الفندلاوي ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول ـ صاحب الحكم المأثورة ـ وحين استأذنا معين الدين في الجهاد ، قال لهما : نحن نكفيكما ، فقالا له : قد بعْنا واشترى!!

إشارة إلى قول الله تعالى في محكم التنزيل :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

ثم قاتلا حتى قُتلا في مكان واحد ، فأذكى ذلك الشجاعة في نفوس المسلمين ، وهجموا على الفرنجة هجمة رجلٍ واحدٍ حتى اضطروهم إلى الرحيل عن دمشق[1] .

هذه هي الصفقة الرابحة : أن تستخدم المال الذي وهبه الله إياك ، واستخلفك عليه ، وجعله مادة ابتلاء وامتحان لك ، أن تستخدمه في سبيل الله ـ جهاداً ـ وأن تستخدمه للإنفاق على الفقراء والمساكين وطلّاب العلم... كما كان يفعل الإمام أبو حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ حيث كان يعمل بالتجارة.. وكان غنياً ، فاستغل ذلك ففتح مدرسة الرأي العظيمة

---

(١) صفحات مشرقة من حياة السابقين (نذير مكتبي): ٣٦٥.

ليقوم فيها على رعاية طلاب العلم ويصرف الأموال الطائلة عليهم وكان عددهم كل عام أكثر من أربعمائة طالب ، وكان منهم أبو يوسف ومحمد وزفر.

● **لا تفرحوا كثيراً . . فالله لا يحب الفرحين!!**

هذا استيحاءٌ من قصة قارون الغني الذي بغى على قومه حين آتاه الله الكنوز ، فكانت النصيحة الأولى له : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . . .

ثم جاءت نصيحة أخرى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾

ثم جاءت الأخرى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾

ثم . . . ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

ثم . . . ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٦ـ٧٧] .

وسنعود لشرح هذه القصة عندما نتكلم عن نماذج من الأغنياء والفقراء . . فالنصيحة الأولى : لا يحب الفرحين ، وقال مجاهد في ذلك : الفرح المنهي عنه : هو الأشر والبطر أي الذي يدعو صاحبه إلى الوقوع فيما يغضب الله وينسيه ذكره وشكره.

وفي الثانية : استعمل ما وهبك الله إياه من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة الله والتقرّب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب.

وفي الثالثة : لا تنس نصيبك من الدنيا ، مما أباح الله : أكلاً وشرباً ولبساً ومسكناً.

وفي الرابعة : أحسن إلى خلق الله كما أحسن الخالق إليك.

وفي الخامسة : لا تكن همّتك بما أنت فيه أن تفسد في الأرض وتسيء إلى خلقه تعالى .

كل هذه الوصايا والمواعظ الموجّهة إلى الأغنياء كي لا تطغى الماديات بألوانها وزخارفها فتجرفهم إلى مستنقعات الدنيا، وحين تتمكن هذه الماديات من القلب يحبّها ويعشقها، وينسى وقتئذٍ المنعم الحقيقي، والمتفضل الحقيقي ـ جل وعلا ـ ويبتعد عن كل وعظ ونصيحة، فيقسو قلبه، ويمرض بمرضٍ خطير ألا وهو جفاف النفس والروح.. ويتغلّق قلبه بالرّان[1]، اللهم أجرنا من ذلك يا رب العالمين.

* * *

(١) كما في سورة المطففين: /١٤ـ١٥/: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ...﴾.

الفصل الخامس

الطمع في الدنيا سبيل إلى الهزائم!!

مع كل ـ ما رأينا ـ من منافع للمال إن كان من مصدر صالح حلال ، نجد في الجانب الآخر أخطار تُصيب الفرد والأمة من جرّاء الطمع في ذلك.

وخير شاهد على ما نقول : فبعد الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على المشركين في معركة بدر (٢ هـ) جاءت غزوة أُحد تحت إشراف سيد الخلق على وجه الإطلاق سيدنا محمد ﷺ حيث نظَّم الجيش ، وجعل منهم خمسين رامياً بقيادة عبد الله بن جبير وضعهم على الجبل ليحموا مؤخرّة الجيش ، ونبّههم إلى عدم النزول إلاّ بأمره ، وأمرهم أن يثبتوا مكانهم إلى آخر لحظة ، لكن ما الذي حدث ؟!

وبعد قليل من بدء المعركة ، مال النصر إلى المسلمين فهرب قسم من المشركين تاركين وراءهم الأغراض والأموال والمتاع... فما كان من أولئك (الخمسين) الرماة إلا أن نزلوا من الجبل وراحوا يأخذون الغنائم وخالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وصاح صائح لقد قتل محمد.. وهاج المسلمون وماجوا.. وقُتل من قتل منهم.. وجرح من جُرح منهم حتى أن المصطفى محمد ﷺ قد جرح في وجهه الشريف وكسرت رباعيته.. بل إن أبا سفيان ـ وكان يومها مشركاً ـ صاح : أعل هبل!!

لكن ألا يحق للعاقل أن يسأل : لمذا حدث ذلك لجيش فيه عمالقة الصحابة : عمر وأبو بكر وبلال ومصعب بن عمير ، وعلى رأسهم

رسول الله ﷺ ؟ إنه الدرس الخالد الذي يجب أن يعيه المسلمون على مرّ الدهور والأزمان : أن لا يتكالبوا على الدنيا ، أن لا يلهثوا وراءها ، وأن لا يقدّموها على طاعة الله ورسوله .

والمشكلة التي عانيناها . . وما زلنا ـ أننا لا نأخذ العبر من التاريخ . . فقد تكررت أحد ودروسها وخاصة درس الغنائم ـ مع المسلمين في معركة بواتييه (بلاط الشهداء) عام (٧٣٢ م) . . وتكرر مثلها مرات ومرات!![1] .

فمتى سنستيقظ من هذا السّبات ؟

* * *

(١) للتوسع في ذلك يراجع: التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجّي: ٢٠٢، والبداية والنهاية: ١٠/٤، والكامل في التاريخ: ١٠٣/٢.